غرائب الالقاب

للأمير العالم مصطفى الشهابي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

ما أشد غرور الانسان في هذه الحياة ! وما أكثر تعلقه بالأوهام ! ولكم حوى هذا الكون الأحمق في طياته من غرائب ومهازل ! ولعل من أغربها أهكومة الألقاب الجوفاء في أبنائنا هذه . فلقد اقتبسنا الميل الى تلك الألقاب عن الفرس والترك في الأيام الخوالي ، ثم لما ضعف سلطاننا اتخذناها ألهية نلهو بها عن الملك المضاع ، حتى تأصل هذا الميل فينا واستشرى ، وصرنا نسمع باسماء والقاب يضحك منها العاقل : كصمصام الدولة ، وضيغم الملة ، وأسد الدين ، وغير ذلك مما يذكرنا بصاحب البيت الآتي :

« القاب مملكة ... »

ومن النكات المستملحة ان رجلا من الصق الناس بي وازهدهم في الألقاب ، زار مصر أخيراً فحار الناس بماذا يلقبونه : فواحد زعم انه صاحب السمو ، وثان قال انه صاحب السعادة ، وثالث ادعى انه صاحب العزة . ولقد والله اخطأ الثلاثة وتاهوا عن محجة الصواب . فالرجل ليس بصاحب سمو ، بل هو كسائر الناس صاحب انخفاض ... لأن كل دقيقة تمر من العمر تدنيه وتدنينا من حفرة منخفضة ، سنصير اليها عما قريب ، وسنغيب فيها شئنا أم ابينا ، وذلك بعد ان نحمل على الآلة الحدباء المعروفة التي قال فيها الشاعر :

كل ابن أنثى وان طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

وليس الرجل بصاحب سعادة ، بل نحن كلنا أصحاب شقاء في هذه الحياة الفانية . وما هي السعادة يا صاح ؟ واين هي ؟ لقد سلخت من العمر اربعين حجة وأنا أفتش عنها بلا طائل . تنورتها تارة بالكهرباء ، وطورا بالسراج وفتيله ... وتحريتها بالعين وبالمجهر . وغشيت لأجلها كل المجتمعات ، وتلمستها لدى كل الطبقات . وعدت في آخر طوافي وأنا أشقى من صاحبنا حنين ، لأن هذا اضاع البعير لكنه فاز بلقيه ، وهما شيء لديه ، أما انا فلم أجد لدى احد من السعادة ما يساوي خفاء واحدا لاخفين . وسأظل أفتش عن هذا الخيال الذي علقته الناس ، مشبها في استقصائه صاحب البيت الآتي ، وقصته يعرفها بعض الأدباء :

من لي بهاتفة يوما وقد سالت أين الطريق الى حمام بنجاب

أما الأدعاء بأن الرجل صاحب عزة ، فهذه ثالثة الأثافي . فالعزة لله وحده . أما صاحب عزة (بفتح العين) فهو شاعر غزل ، اسمه كثير ، وهو زير نساء ، وصاف لمحاسن ربات الحجال . أحب عزة وعشقها وشبب بها ، وقال فيها البيت المشهور :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

والبيت المفجع الآتي :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا لا موجعات القلب حتى تولت

وقد هلك كثير وهلكت عزة منذ قرون ، فكيف يكون رجلنا صاحبها ... مع هذا فهو قد فاته الغزل ، وعداه التشبيب ، وتدلف الى الكهولة ، فلا هو من أصحاب عزة ولا عزة من صواحبه ...

والخلاصة أن البلاد العربية ، ولا سيما مصر والشام والعراق ، أسرفت في النعوت والألقاب ، خلافا لما نراه في كثير من أنحاء أوربا . ورحم الله زمانا كان فيه ملك الخلفاء يمتد من الهند الى بحر الظلمات ، مع هذا كان عمالهم يخاطبونهم بمثل قولهم « الى فلان أمير المؤمنين من عامله على كذا » والحكومة اذا لم يكن الحاكم فيها كصعب في البيتين الآتيين :

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

فهل من مشترٍ للألقاب كافة ؟ (حتى التي فاتت القلقشندي في صبح الأعشى ...) بحكمة يفيدنا إياها ، أو بسر صغير من أسرار هذا الكون يرفع لنا الستار عن غوامضه ؟

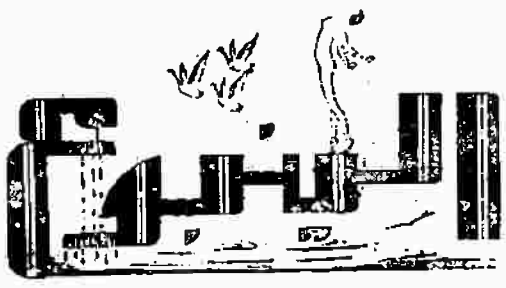

ديوان ابي شاي الجديد

يطلب من المكاتب الشهيرة ومن ادارة مجلة (أبولو) بالسيدة زينب بالقاهرة . ثمن النسخة مائة مليم خلاف البريد .